

الباب الخامس

في تفسيري

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

اعلم أن حقيقة العبادة التي يقبلها المولى بامتثانه، هي التذلل التام برؤية عظمته وعلو شأنه، والثناء عليه بمشاهدة مننه وأنواع إحسانه، وإيثاره على كل شيء بمحبة حضرته وتصور محامده وجماله ولمعانه، وتطهير الجنان من وساوس الجنة نظراً إلى جنانه. ومن أفضل العبادات أن يكون الإنسان محافظاً على الصلوات الخمس في أوقاتها، وأن يجهد للحضور والذوق والشوق وتحصيل بركاتها، مواظباً على أداء مفروضاتها ومسنوناتها. فإن الصلاة مركب يوصل العبد إلى رب العباد، فيصل بها إلى مقام لا يصل إليه على صهوات الجياد، وصيدُها لا يُصَاد بالسهام، وسرُّها لا يظهر بالأقلام. ومن التزم هذه الطريقة، فقد بلغ الحق والحقيقة، وألْفَى الحَبَّ الذي هو في حُجْب الغيب، ونجا من الشك والريب، فترى أيامه غُرراً، وكلامه دُرراً، ووجهه بدرراً، ومقامه صدرراً. ومن ذلَّ لله في صلواته أذلَّ الله له المملوك، ويجعل مالِكاً هذا المملوك.

ثم اعلم أن الله حمد ذاته أولاً في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم حثَّ الناس على العبادة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ففي هذه إشارة إلى أن العابد في الحقيقة هو الذي يحمده حقَّ المحمَّدة. فحاصل هذا الدعاء والمسألة أن يجعل الله أحمد كلَّ مَنْ تصدَّى للعبادة، وعلى هذا كان من الواجبات أن يكون أحمد في آخر هذه الأمة على قدم أحمد الأول الذي هو سيد الكائنات، ليفهم أن الدعاء استجيبَ من حضرة مستجيبِ الدعوات، وليكون ظهوره للاستجابة كالعلامات. فهذا هو المسيح الذي كان وعدَّ ظهوره في آخر الزمان مكتوباً في الفاتحة وفي القرآن.

ثم في هذه الآية إشارة إلى أن العبد لا يمكنه الإتيان بالعبودية، إلا بتوفيق من الحضرة الأحديّة.

ومن فروع العبادة أن تحبَّ من يعاديك، كما تحب نفسك وبنيك، وأن تكون مُقيلاً للعثرات، متجاوزاً عن الهفوات، وتعيش تقياً نقياً سليم القلب طيب الذات، ووفياً صفيّاً منزهاً عن ذمائم العادات، وأن تكون وجوداً نافعاً خلَقَ اللهُ بخاصية الفطرة كبعض النباتات، من غير التكلفات والتصنّعات، وأن لا تؤذي أُخِيَّك بكبر منك ولا تجرحه بكلمة من الكلمات، بل عليك أن تجيب الأَخَّ المغضَّب بتواضع ولا تحقره في المخاطبات، وتموت قبل أن تموت،

وتحسب نفسك من الأموات، وتعظم كل من جاءك ولو جاءك في الأقطار لا في الحُلل والكسوات، وتسلم على من تعرفه وعلى من لا تعرفه، وتقوم متصدِّياً للمواساة.